الإسلاميون والمستقبل

رؤية في تخطي الحواجز

المقدمة

◆ ◆ ◆

obeikan.com

obeikan.com

كانت الحركة الإسلامية الحديثة، التي بدأ مخاضها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بفعل جهود نفر من الدعاة الرساليين وقادة الفكر المخلصين، ثم اتضحت ملامحها على يد الداعية الكبير الشيخ حسن البنا عام ١٩٢٨م من القرن الماضي، أملاً كبيرًا للإسلام والمسلمين يستطيعون من خلاله التصدي للمشروع الغربي الصليبي في العالم الإسلامي الذي أسقط الخلافة وقضى على وحدة الأمة وعمل ويعمل جاهدًا من أجل نشر العولمة والتغريب بين المسلمين.

هذا الأمل الذي بدأه البنا، اكتسب زخمًا كبيرًا في سبعينات القرن الماضي، بعد نهاية الحقبة الناصرية التي أعاقت المشروع الإخواني أيما إعاقة، وبعد تحقيق نصر أكتوبر عام ١٩٧٣م، وبعد خروج الإخوان من السجون، وبعد بداية ظروف سياسية وواقع مختلف أراد السادات أن يقيمه، وكان هذا الزخم هو النمو المذهل للمد الإسلامي في كل مكان في مصر، وكان هذا الزخم هو حالة إسلامية عامة ترى أن في الإسلام عزها وخلاصها، خاصة بعد البعد الإسلامي الواضح الذي رأيناه في حرب أكتوبر والذي كان حاضرًا لدى تدريب الجيش وإعداد الدولة للحرب.

لكن هذه الحالة العامة سرعان ما تشكلت إلى فصائل جديدة أضيفت إلى الحركة الإسلامية ورفضت أن تكون امتدادًا للمشروع الإخواني وأبت أن تنضم إلى الإخوان ورأت أن المشروع الإخواني قد فشل ولم يحقق ما قام من أجله، لذلك رأت هذه الفصائل الجديدة أن تبدأ من جديد تجربتها الخاصة.

وكانت تجربة مريرة كلفت مصر كلها، نظامًا سياسيًا، وحركة إسلامية بالكامل، تكلفة باهظة في الأرواح والأموال والخسائر الكثيرة المتعددة، وفوق ذلك كله رسخت حالة العداء والكراهية بين الدولة المصرية ومؤسساتها وبين الإسلاميين جميعهم، ورمت بعشرات الآلاف من الشباب الإسلامي إلى غياهب السجون لسنوات طويلة،

وراح ضحيتها العشرات قتلى على أعواد المشانق وبالرصاص الحي.

لكن لم تهدأ هذه الفتن بعد، فإذا كان البعض قد عاد إلى رشده وراجع أفكاره، فمازال الآخرون يحملون السلاح ويخاصمون العالم كله، بدعاوى مختلفة تؤكد أن العنف هو الدستور الذي يفضلون أن يتحاكموا إليه.

في موازاة هذه الحالة من عدم الانضباط في الرؤية السياسية، كانت الحالة الثقافية والفكرية داخل الحركة تتمتع بسيولة كبيرة وعدم انضباط، وكأنه بات لزامًا على هذه الحركة ألا تتعلم من أخطائها. فإذا كان الجميع قد علم وشاهد ما انتهت إليه أفكار «التكفير» وممارساته السياسية، فإنه مازالت أفكار «الجهاد» والتغيير العنيف تقنع قطاعات متزايدة من الشباب الإسلامي. أما إذا غصنا في التركيبة الثقافية الداخلية للتنظيمات الإسلامية فسوف نجد اغلاقًا وإعجابًا بثقافة التنظيم الخاصة، حتى لو تواترت الانتقادات وآراء الخبراء على خطئها، وسنجد حالة من التقاطع والتدابر بين هذه الفصائل عبر حملات من التكذيب والتشويه والتشكيك في الآخر الإسلامي.

وكابن من أبناء الحركة الإسلامية، صاحبتها وعشت داخلها وتعرضت لثقافتها وصادقت العديد من رموزها منذ عام ١٩٧٨م وحتى الآن (٢٠١٠م)، أي أكثر من اثنين وثلاثين عامًا، فقد أردت أن أناقش في هذا الكتاب كل ما يتعلق بالحركة الإسلامية من أوضاع سياسية وتنظيمية وفكرية وإعلامية واجتماعية، على أسس نقدية تتيح للحركة أن تستفيد من أخطائها وأن تطور من سلوكها ومن أدائها، وأن تندمج أكثر في مجتمعاتها، وأن تطلق العنف ثقافة وفكرًا واختيارًا وممارسة إلى غير رجعة، وأن تنظر إلى المستقبل معززة وجودها فيه بعقل جديد ونفسية جديدة وفكر جديد.

في سطور هذا الكتاب قضايا كثيرة أساسها الخبرة، وحاديها هو حب هذه الحركة وتمني الخير لها، لكنه ذلك الحب الذي لا ينافق ولا يداهن، هو حب الابن الذي يصارح بالعيوب والمشكلات، خاصة وأن عمل المؤلف كصحفي في الكثير من الجرائد والمجلات والمواقع الإسلامية، وفر له الاطلاع على كثير من تفاصيل الأمور ومناقشتها مرارًا مع أهل الخبرة ومع قادة الحركة.

وإذا كان شباب الحركة الإسلامية يكرهون النقد، فإن عليهم أن يفسحوا صدورهم أثناء قراءة سطور هذا الكتاب، فإن وجدوه مخلصًا يشير إلى المشكلات بدقة وأمانة فليس أمامهم إلا التفاعل معه والدعوة إليه والبناء عليه وتأصيله، وإن وجدوه غير ذلك فلهم أن يتركوه جانبًا ولا يلتفتوا إليه.

وأعتقد جازمًا أن ممارسة النقد الذاتي داخل الحركة الإسلامية، ثقافة وتنظيمًا وسياسة، بات واجبًا وضروريًا وشديد الأهمية لهذه الحركة بعد أن تربت طويلاً على إهمال النقد الذاتي وعلى الأحادية والسمع والطاعة وعدم المناقشة والحوار، وفي هذا الكتاب محاولة لتأسيس ثقافة نقد ذاتي إسلامي سيستشعرها القارئ بعد أن ينتهي من قراءة الكتاب، ونأمل أن تتلو هذه المحاولة محاولات نقدية أخرى ترشد الصحوة وثقافتها وتطور أداءها، فالنقد البناء الهادف ليس إساءة وهدمًا بقدر ما هو تدعيم وتعميق وعي وترسيخ جذور.

وإذا كنا نريد من هذه الرؤية النقدية دفع فصائل الحركة الإسلامية لكي تعيد النظر فيما هو قائم لديها من أفكار وممارسات ثبت عدم جدواها، فإننا نؤكد أن ما لدى الحركة الإسلامية إنما هي نظم وممارسات وأفكار ليست معصومة، ففرق بين الإسلام المعصوم واجتهادات أبناء الحركة الإسلامية في الثقافة والفكر والسياسة والإعلام والتربية والاقتصاد، وما يزيد الحاجة إلى إعادة النظر في الكثير

من برامج الحركة الإسلامية أن العالم كله يموج بتغيرات متتالية، ثم إن هناك الكثير من الأخطاء التي وقعت فيها الحركة وينبغي أن تصححها وهذا التصحيح يلزمه إعادة صياغة الرؤية الفكرية للحركة التي يتأسس عليها العمل والسلوك.

لكن الذي ينبغي أن يكون واضحًا وضوح الشمس، هو أننا إذا كان منهجنا في هذا الكتاب هو منهج النقد الذاتي الذي يركز على المعايب وأوجه القصور، فليس معنى ذلك أننا لا نرى للحركة الإسلامية خيرًا ساهمت فيه، فالعكس هو الصحيح، فقد كانت هذه الصحوة المباركة من أفضل ما شهدته مصر في تاريخها المعاصر.

أعادت الصحوة المباركة لمصر وجهها الحقيقي وهويتها الإسلامية بعد أن أرادت الحملة التغريبية الشرسة إبعادها عن طبيعتها وعن دورها التاريخي، ثم جاء الدور القومي الاشتراكي للثورة بجوانبه السلبية المتخاصمة مع المرجعية الإسلامية والذي انتهى إلى هزيمة ١٩٦٧م المذلة، كل ذلك كان ثقوبًا سوداء في الثوب المصري قامت الصحوة الإسلامية بغسلها وإزالتها. وقامت هذه الصحوة المباركة بدور الكابح الذي يمنع التدهور الأخلاقي والقيمي الذي أراده المشروع العلماني المشبوه.

بعد أن كان «الميني جيب» هو الزي النسائي المنتشر في الشارع المصري، أصبح الحجاب والنقاب هو زي طالبات الجامعة والموظفات والعاملات والمهنيات وربات البيوت، وبعد أن كانت الثقافة الاشتراكية وفكر ماركس ولينين أمورًا طبيعية بين الطلبة والمثقفين، أصبح الكتاب الإسلامي هو الأكثر مبيعًا وانتشارًا. هذا كله جعل أجهزة الدولة تصحح نسبيًا من أخطائها مخافة نقد واعتراض الإسلاميين، وانتشر الفكر الإسلامي والالتزام بالأخلاق الإسلامية بين أساتذة الجامعات والأطباء والقضاة والسياسيين وحتى الفنانين، وهذا كله انعكس إيجابيًا

على المجتمع بشكل عام.

لولا الصحوة الإسلامية التي خرجت من مصر لتنتشر في أنحاء كثيرة من العالم، ما وجدت قضايا المسلمين والأقليات الإسلامية من يتبناها ويثيرها ويدافع عنها ويتظاهر من أجلها بل ويتطوع للدفاع عن أخوة الإسلام والعقيدة.

ولولا هذه الصحوة المباركة لوجدنا الإعلام العربي بالكامل يدافع عن الفكر الغربي والنمط الغربي في الحياة وعن الفن الغربي .. إلخ، أما الآن ففي غالبية وسائل الإعلام، حتى غير الإسلامية، لا نعدم قلمًا أو كثيرًا من الأقلام، يتبنى القضايا الإسلامية ويدافع عنها وينتصر للشريعة والهوية الإسلامية.

إذا استطردنا ما قامت به الصحوة الإسلامية من جهد وما حققته من أثر في حياتنا الاجتماعية والسياسية وحتى الاستراتيجية ، فسوف نحتاج إلى مجلدات، لكن هذه ليست قضيتنا، فنحن معترفون لها بالفضل بلا جدال، لكننا تركنا ذلك كله وتكلمنا عن أوجه النقص والقصور ، حتى يمكن تلافيها من أجل أن تزداد الحركة والصحوة قوة ومنعة، تستطيع معها تحقيق أهدافها التي على رأسها إعادة الشريعة والهوية الإسلامية لمصر وإعادة صياغة أنساقنا القانونية على أسس هذه الشريعة الغراء.

المؤلف